من القاهرة الى انقرة

مشاهدات في تركيا الجديدة

الزراعة والصناعة — الصحة والتعليم — مصطفى كمال

— ٥ —

تركيا بلاد زراعية غنية اهم حاصلاتها القمح والذرة والشعير والكتان والقطن والقنب والتبغ والقطاني على انواعها والسمسم واليانسون والعنب والتين وزيت الزيتون . وهي كذلك غنية بالمعادن ففيها الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد والفحم والزئبق والبورق والكروم والزرنيخ والبترول . ومما اشتهرت به قبل الحرب انها كانت تصدر من المعادن ما قيمته نحو مليوني جنيه على ضعف وسائلها الصناعية الحديثة . فقد كانت تصدر نحو ٨ في المائة من خام الكروم المستهلك في العالم وكانت الاناضول وحدها تصدر نحو ٣ في المائة مما يستهلك في العالم من الزئبق . ثم ان تركيا اشتهرت بصناعات دقيقة كصناعة السجاد والصوف العينية التي عرفت بها كوتاهية وغزل الحرير في بورسه وما جاورها واستقطار عطر الورد في وادي نهر المريج في تركيا الاوربية . فما هو مقام الصناعة والزراعة في تركيا الجديدة ؟

خذ كتاب الاحصاء الرسمي الذي تصدره الحكومة التركية وقلب صفحاته تقف على ارقام واحصاءات تدلك على ان البلاد ليست مقصرة في تثمير ثروتها الزراعية والمعدنية على ضعف وسائلها وقلة اليد العاملة واستحكام الازمة العامة

فالمساحة المزروعة فيها حنطة تبلغ نحو ٢٢ مليون دنم (الدنم نحو خمس فدان) وحاصلاتها ١٫٣٣٣٫١٥١ طنا . ويأتي بعدها الشعير والأرز والذرة من الحبوب . ومجموع الارض المزروعة حبوباً تبلغ ٣٩ مليون دنم ومحصولها ٢٫٤٠٠٫٢١٣ طنا . ثم أنهم يعنون بزرع الخضروات فترى مثلاً ان ١١ الف دنم تزرع بازلاً و ٢٧٤ الف دنم تزرع فاصوليا و ١٠٤ آلاف دنم تزرع عدساً وحلمٌ جرّاً ومجموع الاراضي المزروعة خضراوات ١٫٤٧٠٫٠٠٠ دنم وحاصلاتها تبلغ ٧٠٠٫٢٢٤ طنا . ثم ان الماشية سواء أكانت للحرث او للذبح والاكل تنال نصيباً كبيراً من اهتمام الحكومة والامة . فيقدّر عدد الثيران فيها بنحو مليونين ونصف مليون ثور والجواميس بنحو ربع مليون جاموس وربع مليون جاموسة والبقر بمليونين وثلث مليون بقرة والضأن بنحو عشرة ملايين ضأن والخيل بين فرس وجواد بنحو نصف مليون،

أما النباتات الصناعية فكثيرة كذلك . فالتبغ الذي يصنع منه السكر في تركيا يزرع في اطيان يبلغ مجموع مساحتها ٨٦ الف دنم ومحصولها ١٦٠ الف طن . والقطن يزرع في نحو ٩٩٠ الف دنم ومحصوله ٣٨ الف طن . والتبغ في ٧٩٠ الف دنم ومحصوله ٤٧٥٠٠ طن

فمجموع المساحات المزروعة في تركيا — بنباتات الحبوب او الخضراوات او النباتات الصناعية — يبلغ ٤٣٫٦٣٧٫٧٢٧ دنماً ، ومحصولها جميعاً يزن ٢٫٦٦١٫٤٣١ طناً

يضاف الى ذلك ان الحراج في تركيا تكسو شرق الاناضول ، جبالاً وسهولاً ووهاداً ومنها ما يصلح للبناء ومنها ما يصلح للتفحيم. اما الخشب الذي يصلح للبناء فمنه الدلب وقد كان المقطوع منه سنة ١٩٣٠ نحو ٢١٧ الف متر مكعب والسنديان وكان المقطوع منه في السنة نفسها نحو ٢٣ الف متر مكعب والقطران والمقطوع السنوي منه ٣٩ الف متر مكعب والصنوبر والمقطوع السنوي منه نحو ٥٩ الف متر مكعب والكستناء والمقطوع منه ١٩ الف متر مكعب . اما الخشب الذي يقطع للتفحيم فيبلغ متوسط المقطوع منه سنوياً ما وزنه نحو مليوني قنطار شامي تحول الى نحو ٦٦٠ الف قنطار من فحم الخشب

***

أما الصناعة فاليك شيئاً عنها :

يبلغ عدد المنشآت الصناعية المشتغلة بالاستخلاص والاستقطار كالسكر والكحول والزيت ٥٥٦٠ يشتغل بها ١٩ الف عامل والخاصة بالصناعات الزراعية وتربية الحيوانات والصيد ٢٨٤٣٩ يشتغل بها ١١٠ آلاف عامل والخاصة بالمنسوجات ٩٣٥٣ يشتغل بها ٢٤ الف عامل والخاصة بقطع الخشب واعداده ٧٨٩٦ يشتغل بها ٢٤ الف عامل والخاصة بصنع الورق والورق المقوّى (الكارتون) ٣٤٨ يشتغل بها ٢٧٩٢ عاملاً والخاصة بالتعدين وما يتصل به ١٤٧٠٢ يشتغل بها ٣٤ الف عامل والخاصة بالبناء ٢٨٠٧ يشتغل بها ١٢٣٤٥ عاملاً والصناعات الكيمائية ٦٩٧ يشتغل بها ٣١٠٠ عامل وهناك منشآت صناعية مختلفة فيبلغ مجموع المنشآت الصناعية في تركيا ٦٥ الفاً وعدد المشتغلين بها ٢٥٦ الفاً

وهذا ولا شك عدد قليل في امة يبلغ عددها نحو ١٦ مليوناً ولكن المهم انه يتناول اهم وجوه الحياة الصناعية من تعدين للناجم الى الصناعات الكيمائية الدقيقة

ثم اذا دققنا النظر قليلاً وجدنا نحو ٢٩٠٠ من هذه المنشآت الصناعية تستعمل المحركات على انواعها من محركات تسير بقوة البخار او بقوة غاز الاستصباح او بقوة الكهربائية او بقوة الزيت او البترول ومجموع المحركات كلها نحو ٥٠٠ محرك وتولد قوة ١٦٣ حصان

ويهمنا كذلك ان نعلم من يشرف على هذه المنشآت كلها ومن يعمل فيها من حيث هم اتراك او أجانب. ففي المنشآت الخاصة بصناعات النسيج ١٦٧٩ مشرفاً منهم ١٥٧٠ مشرفاً من الاتراك

و١٠٩ مشرفين من الاجانب ومجموع المشرفين في كل المنشآت الصناعية ١٠٧٨٦ مشرفاً منهم ١٠١٨٢ من الاتراك و٦٠٤ من الاجانب . وفي بعض المنشآت الصناعية مشرفات يبلغ مجموعهن ١٥٥ مشرفاً منهن ١٣٥ مشرفة تركية و٢٠ مشرفة اجنبية

اما الاجانب بين الموظفين والعمال فقلية يسيرة جداً لا تكاد تبلغ واحد في المائة . اما الموظفات في المنشآت الصناعية فنحو ١٦٠٠ امرأة والعاملات ٨٠٠٠ فتاة (دون الرابعة عشر من العمر) و٢٩ الفاً فوق الرابعة عشرة من العمر

ولنأخذ صناعة واحدة كصناعة السكر ونذكر شيئاً من التفاصيل الخاصة بها لتكون مثالاً يوضح لنا من اجلناه . فالمستخرج من السكر في معملين من معاملهِ يبلغ ٢٣ الف طن من السكر مستخلص من نحو ١٦٠ الف طن من البنجر (١٩٣١) وتقدر قيمة المباني فيهما بنحو مليوني ليرا تركية (١٩٣١) وقيمة الآلات بنحو ثلاثة ملايين ليرا تركية أي نحو ٧٠٠ الف جنيه مصري وعدد العمال والموظفين فيهما الف وقد يزيدون الى الف وخمسمائة عامل . في أحدهما ١٦ خبيراً أجنبياً وتبلغ مساحة الأرض التي تزرع بنجراً لهما ١٣٠ الف دنم . ويخرج منها عدا السكر كحول ودبس وغيرهما

أما المناجم فتخرج في السنة (١٩٣١) ٧٧٧٥ طناً من فحم اللجنيت و٨٤٥ طناً من النحاس (١٩٢٦) و٦٠٠٠ طن في المتوسط من السفاذج (الصنفرة) و٢٧٦٧ طناً من الرصاص و ٤٣ طناً من الانتيمون والف طن من المنغنيس و٢٥٣٨٢ طناً من الكروم (وهو معدن لازم لصناعة اصناف خاصة شديدة القساوة من الصلب) و٢٣٩ طناً من الزئبق و١٢٧٦ من الزنك و ١٠٠٠٠٠ من الستت

هذه حقائق أولية تبين لك الى اين وصلت الصناعة التركية فيهما الآن ان ننظر في خطة الحكومة الاقتصادية التي تحاول بمقتضاها ان تسير بزراعة البلاد وصناعتها الى الغرض الذي يرمقهُ الغازي ورجاله

***

مما لا ريب فيهِ ان الخطة السياسية التي جرى عليها الغازي كان لها حتى الآن اثر سيء في البلاد من حيث الانتعاش الاقتصادي . ولا ريب ان الاقدار لم تكن في جانبهِ في هذا الجهاد كما كانت تواليهِ في ميادين الحرب والسياسة . فالحرب الكبرى وحرب الاستقلال زفت نشاط البلاد ، وانضبت مواردها ثم جاءت الثورة الكردية ، وتلتها مواسم غلب فيها القحط والاحتال على خصب التربة وغنى البلاد الطبيعي . فما استفحل امر الازمة الاقتصادية العالمية كان لها في تركيا ابلغ الاثر

ان خطة الحكومة تقوم على مبدأين جعل تركيا امة منسجمة ، وتحريرها من السيطرة

الاجنبية . فتحقيقاً لهذين الغرضين طرد اليونان من شرق الاناضول و بيد الارمن او كادوا. فكانت النتيجة ان العناصر التي كانت عروق الامة تجري فيها دماء الحياة الاقتصادية زالت منها . وكان الاتراك في بدء هذا العهد يعتقدون . كما كان الرومان يعتقدون . ان التجارة والصيرفة اعمال خسيسة بالشعوب المحكومة . فلم يستطيعوا في البدء سد النقص. وسمح للارمن واليونان ان يقيموا في استانبول ويزاولوا الاعمال التي يريدون مزاولتها ، ولكن على شريطة ان يتجنسوا بالجنسية التركية ، ومعنى هذا التخلي عن لغتهم وثقافتهم القومية وهذا قد يكون متعذراً بوجه الاجمال فيما يخص الارمن واليونان. اما اليهود فاكثر مرونة وقد قال احد زعمائهم لعصمت باشا : « اذا لم نصبح اتراكاً بعد عشر سنوات فاطردونا من البلاد »

وقد عنيت الحكومة جهدها بمساعدة الترك على تسلُّم ازمة التجارة في البلاد . ونحن على ما رأينا في فروع بنك ايش في الاسكندرية وازمير وانقره نشهد انهم اصابوا قسطاً كبيراً من النجاح. فقد قضت الحكومة على ان كل المحلات التجارية يجب ان تكون دفاترها باللغة التركية وان تستخدم الترك ، حتى لا يقلوا فيها عن خمسين في المائة من موظفيها

والشركات الاجنبية التي تريد ان تستثمر مورداً من موارد البلاد يجب ان يكون ٥١ في المائة على الاقل من حملة اسهمها اتراكاً . والحكومة توالي العناية بالخطب والصحف لكي تحمل اهل البلاد على استعمال مصنوعاتها دون المصنوعات الاجنبية التي فرضت عليها ضرائب جمركية عالية جداً.

والسعي الى حفظ تركيا حرة من نفوذ الرأسمالية الاوربية او الاميركية أخَّر حتى الآن، تجديد حياة تركيا الاقتصادية . لانهُ من المتعذر ان تثمر ثروة البلاد الطبيعية من دون رأس مال وهذا يقتضي ضمانات يحسبها الغازي قيوداً تقيد بها الحرية القومية . فقد منحت بعض الامتيازات لطائفة من الاجانب انسويديين لبناء سكك الحديد والبلجيكيين لصناعة عيدان الثقاب وانبولونيين لصناعة الكحول ولكن معظم هذه الجماعات لم يلق النجاح المنتظر . ويقال ان سبب ذلك شدة تدخل الحكومة التركية في اعمالهم تدخلاً ناشئاً عن سوء الظن في أصحاب الرأسمالية الدولية

ولكن مصطفى كمال واعوانه تمكنوا من مد السكك الحديدية اللازمة بمال أرصد لها في ميزانية الحكومة . وقد عنيت الحكومة كذلك بمد الطرق لتسهيل سبل المواصلات وتشجيع بعض الصناعات الوطنية

كل هذا أفضى الى قيام طائفة من الاقتصاديين الشبان ، يدعون الى فلسفة اقتصادية جديدة . وقد قضيت مع احدهم «برهان آصف» نحو ساعتين في انقرة بالامس أتحدث معه في هذه الفلسفة وهو شديد الحماسة لها ، ولا يرى للامة التركية مخرجاً الا بها

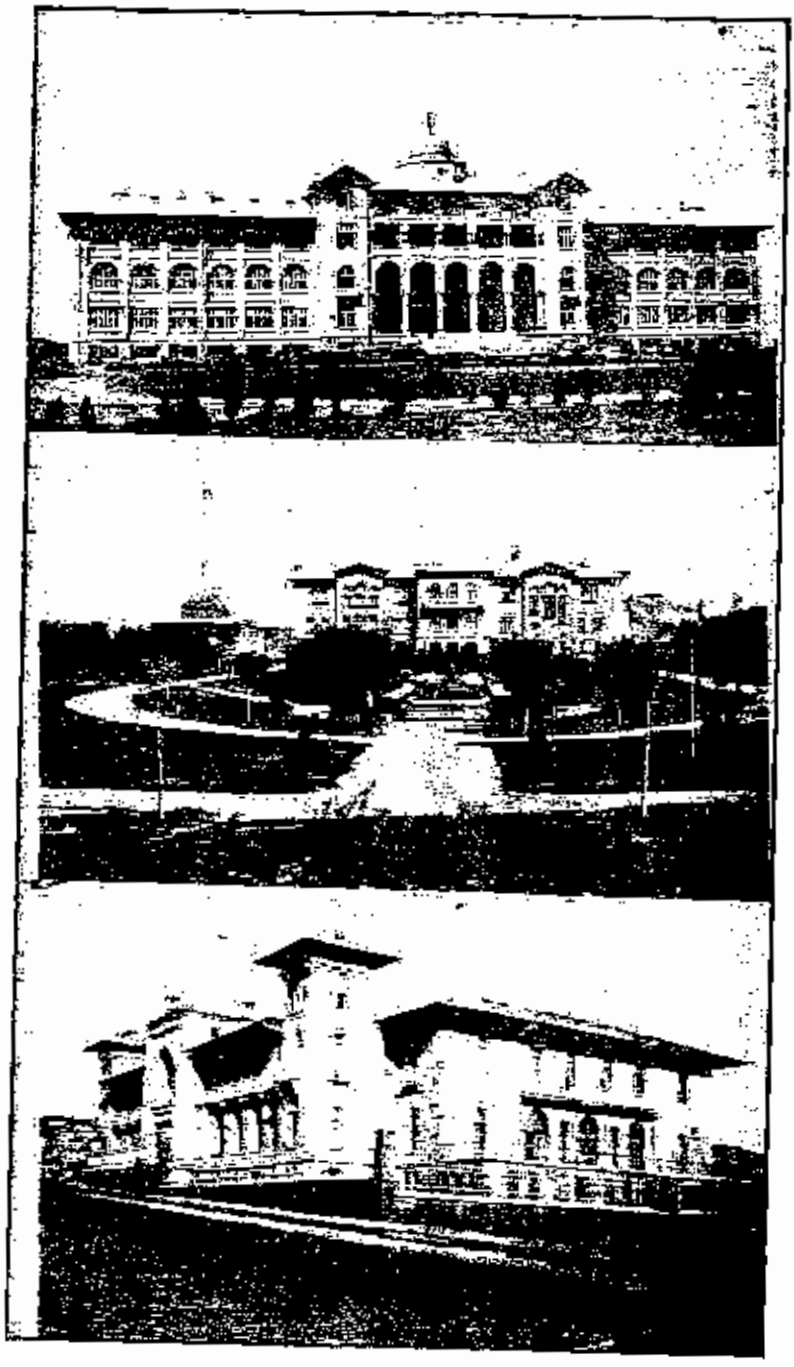

مباني انقرة

(فوق) معهد الغازي . دار المعلمين (وسط) دار مجلس الامة

(تحت) فندق انقرة پالاس

قال — وكان على مقربة منا على شرفة انقرة بالاس خبراء اميركيون — ان الخبراء ينصحون لنا بأن نبقى امة زراعية ولكن البلاد من دون زراعة لا يمكن ان يطبق فيها العلم ، واذا لم يطبق العلم فلا فائدة منهُ . والعلم نفسهُ يعلم الدقة ، واذاً فالمعاهد العلمية لا تجدي الاَّ اذا فسح المجال في البلاد لتطبيق العلم . واذاً فلا بدَّ من الصناعة

هذا من الجهة الثقافية . ثم ان التركي الآن لا يستطيع ان ينافس الاوربي والاميركي بفعل الرأسمالية الدولية . فالتركي تاجر بسيط لا يستطيع ان ينافس الشركات العظيمة التي تبعث بمصنوعاتها ووكلائها الى قلب الاناضول مثلاً . واذا شئنا ان نمكنه من منافستها وجب ان نحميه بحواجز جمركية عالية . وهذه الطريقة ليست بالطريقة المثلى . بل انها ليست بالطريقة الطبيعية . ولا بد في النهاية من تفوُّق الصناعة القوية رغم كل انواع الحماية

وقد كانت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر تملك صناعة قومية تكفيها منتجاتها المتنوعة فقد كانت تصنع حتى الحديد والصلب والآجر : وكانت تستبدل منتجاتها بما تحتاج اليه من منتجات البلدان الاخرى وكان التبادل معقولاً قائماً على اسس طبيعية واقتصادية

فلما نشأت الصناعة الآلية ، وشيد عليها بناء الرأسمالية الدولية ، ضعفت الصناعة التركية ، واضطرت بان تسلم بالتبادل غير المعقول الذي فرضتهُ الرأسمالية الدولية على كل البلدان — اي انها كانت تأخذ المواد الخام من البلدان المختلفة ، وتصنعها ثم تعيدها الى البلاد التي اخذت منها فتبيعها هناك . وليس هذا بالأمر الطبيعي . بل الطبيعي ان لا ينفق على المواد الخام اجور النقل ذهاباً وايباباً ، ونفقات اخرى ، تضاف الى سعرها النهائي ، وانما المعقول ان تصنع المواد الخام حيث تستهلك توفيراً للانفاق وترخيصاً للثمن . وأمثلة ذلك كثيرة نراها في قطن مصر وصوف طرابزون مثلاً

فلما دخلت اميركا واليابان ميدان الصناعة الدولية فقدت اوربا عملها ، وهو جمع المواد وصنعها وتجهيز العالم بها ، فاوربا بعد اليوم لن تكون « منتج » العالم ، والراجح ان كل بلاد تكتفي بعد الآن ، بالصناعات الكبيرة — اي التي تصنع من مواد البلاد ويكون ما يستهلك منها كثيراً في البلاد نفسها . وقد تختص كل بلاد بعد ذلك بضرب او اكثر من الصناعة الدقيقة يكون فيها مجال التبادل الدولي . فسويسرا تختص مثلاً بالساعات والمانيا بالاصباغ

فالثورة التركية في نظر هؤلاء الشبان ليست الغاء السلطنة والخلافة وانشاء الجمهورية وتحرير المرأة . والثورة التركية لا يمكن ان تكون قد تحققت الاَّ اذا امكن تحديد الاستقلال التركي بمقتضى القوانين الاقتصادية والاجتماعية السائدة في هذا القرن . اذ لا يخفى ان الاستقلال الآن غيره في القرن التاسع عشر

وتركيا لا تستطيع ان تنشىء الصناعات الكبيرة وهي عنصر اساسي من عناصر الاستقلال

في القرن العشرين بمال الاجانب لانهُ بمثابة بيع للبلاد . ولكن الافراد والجماعات التركية لا تملك رؤوس اموال تمكنهم من ذلك ولا هم يستطيعون ان يجمعوا رؤوس اموال من التجارة الخارجية لان كل بلاد تميل في الغالب الى الاكتفاء بمنتجاتها الآن . ثم انهم لا يستطيعون ان يجمعوها من التجارة الداخلية كما هو معلوم . لذلك ترى برهان آصف وصحبه يدعون مجرأة الى ان تدخل الدولة الميدان ، ميدان الصناعات الكبيرة — اي الصناعات التي موادها الخام من البلاد واستهلاكها في البلاد نفسها واسع النطاق — كصناعات النسيج والاطعمة والدباغة وما اشبه . فاذا قلت لهم هذه اشتراكية او شيوعية قالوا لك ليست هذه ولا تلك و انما هي فلسفة اقتصادية لا سبيل لنا الا بها واذا نجحت فتستطيع كل البلدان الشرقية التي كانت خاضعة للرأسمالية الدولية الاخذ بها والسير عليها . والحكومة التركية لم تأخذ حتى الآن الا بجانب من هذه الفلسفة ، فقد أنشأت في قيصرية مصنعاً حكومياً للغزل ، ولعلها تحاول امتحان الفكرة من ناحيتها العملية أولاً قبل الاقدام على تطبيقها بحذافيرها

— ٦ —

صحة الامة في المقام الأول بين مصادر ثروتها الطبيعية والروحية . لأن الأمة التي تملك المناجم الغنية والسهول الخصبة والانهار الجارية لا تستطيع أن تستغل هذه المرافق إلا إذا صح أبناؤها أجساماً وعقولاً . فاذا كانت الأمة مصابة بأمراض متوطنة في بلادها أو اذا أهملت ابسط اسباب العناية بصحة الجسم استنزف ذلك من نشاط أبنائها وأضعف من مضاء عقولهم فلا هم يستطيعون استنباط الوسائل اللازمة لاستغلال ثروة بلادهم ولا هم يستطيعون الصبر على تطبيق الوسائل اذا نقلوها عن غيرهم من الامم

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان حضارة روما تقهقرت وبادت لأن جراثيم البرداء (الملاريا) رتعت في دماء أبنائها زماناً طويلاً ولو أنها عرفت أبسط قواعد الصحة العامة — وما كان ذلك ممكناً وقتها — لنزحت المستنقعات التي يتولد فيها البعوض الناقل للبرداء ولنجت من الوهن والاضمحلال

والتعليم هو وسيلة المجتمع لكشف المواهب وتدريب الملكات وتوجيهها . وقد أصبح في هذا العصر لا ندحة عنه للفرد او للامة لأن الصراع في ميدان الاعمال عنيف والأمة كائنة ما كانت ثروتها الطبيعية وصحة أبنائها لا تستطيع ان تحقق ما ترمقه من آمال كبار الا اذا كان غرض التعليم في نظامها الاجتماعي واضحاً لا يشوبه ابهام يوافق حاجتها ، ووسائله منسقة وافية

***

ولقد سهرنا ما رأينا في تركيا الجديدة من العناية بهاتين الناحيتين من حياة الشعب . عناية

لا أستطيع ان أصفها بأكثر من قولي ان نفقات الحكومة المركزية عليهما تبلغ نحو ستة ملايين من الجنيهات وهو يكاد يكون ربع الميزانية أو يزيد

***

وجهت حكومة تركيا الجديدة عناية خاصة الى شؤون الصحة العامة . فأنشأت لها وزارة خاصة أقامت عليها وزيراً طبيباً ووكيلاً طبيباً . وقد زرنا وزارة الصحة في أنقرة فاذا نحن في بناء جديد فخم . جدرانه بيض وأبوابه بيض وسلالمه بيض . لا تكاد تلمح أثراً لبقعة على كل هذا البياض الناصع . وزرنا المعامل فأعجب بها أطباؤنا ونحن نسلم بشهادة الاطباء . ودخلنا الغرف الخاصة بالنظافة الصحية فرأينا فيها مئات اللوحات التي تفسر للعامة بالصور الملونة والكلام القليل ما يجب عليهم من الوسائل الصحية لمكافحة الأمراض المختلفة . كالملاريا والتراخوما والزهري والسل وغيرها

وزرنا كذلك في الجزيرة الثانية من جزائر الامراء ، وقد فاتني اسمها الآن مستوصفاً للسل قائماً على ربوة تشرف على بحر مرمرة من جهاتها الثلاث ، وتحيط بها غابة من اشجار الصنوبر ، فرأيناه جامعاً لكل وسائل الراحة والعلاج ، الا معامله البكتريولوجية فانها لا تفي بالحاجة ولكن الحكومة التركية مع ضعف وسائلها المالية استطاعت ان تضيف الى المستوصف بناءين جديدين وقد خصص جانب من أحدهما للعمل البكتريولوجي . ووقف البناء الآخر على طهي الطعام باحدث الوسائل واوفاها . والخدمة في هذا المستوصف من درجة واحدة لكل المرضى ، الاغنياء والفقراء منهم على السواء

والمستشفيات في انحاء تركيا كثيرة ، في استانبول وارضروم وديار بكر وسيواس والعزيز وانقره وازمير — ومنها ما هو خاص بالامراض العقلية والعصبية (استانبول) والامراض المعدية (حيدر باشا وازمير) والتوليد وامراض الاطفال (انقره وقونيه وارضروم وادنه وقارس وملاتيا وغيرها) وثمة مستشفى خاص بامراض الاطفال في استانبول ومعاهد لمعالجة الكلب في استانبول وسيواس وديار بكر

وقد اصدرت الحكومة قانوناً سنة ١٩٢٢ تلزم به المقبلين على الزواج بالتقدم للكشف الطبي قبل ذلك . وقانوناً آخر يجعل علاج الامراض الزهرية اجباريًّا ومن دون مقابل للجميع

***

وقد تجلى نشاط وزارة الصحة التركية في تحسين الصحة العامة في مكافحة الملاريا . فقد جففت من المستنقعات في خلال سبع سنوات (١٩٢٥ — ١٩٣١) ما مساحتهُ نحو ١٧٣ الف دنم او نحو ٣٥ الف فدان في انقره ومرسين وقونيه وبروسا وسمسون وغيرها . ومن الاقنية التي يتولد فيها البعوض الناقل للملاريا ما طوله نحو ٢٠٠ الف متر

وقد بلغت نفقات الحكومة على المنشآت الصحية العامة التابعة لوزارة الصحة من مستشفيات ومستوصفات نحو مائة الف جنيه سنة ١٩٣١ ونحو مليون جنيه في خلال سبع سنوات (١٩٢٥ — ١٩٣١) أما ما انفقتهُ على مكافحة الملاريا سنة ١٩٣٠ فبلغ نحو ١٤٠ الف جنيه وعلى الزهري ٣٥ الف جنيه وعلى التراخوما ١١ الف جنيه ومجموع ما انفقتهُ على مكافحة هذه الامراض الثلاثة في سبع سنوات نحو مليون جنيه . ويبلغ عدد المشتغلين بالصحة العامة أتابعين لوزارة الصحة وللحكومات المحلية البلديات سنة ١٩٣٠ نحو ٢٠٠ طبيب و١١٣ صيدليًّا و١٢١٤ مفتشاً صحيًّا و٤٣١ قابلة و٢٢١ ممرضة و٥١٥ موظفاً آخر . والقائمون باعمال هذه المنشآت كلها من اطباء وقابلات اتراك تلقوا علومهم في الغالب في تركيا وبعضهم في اوربا أو اميركا . فالطبيبة فيخلجأ الاطفال درست في جامعة بوسطن . ومدير المعمل البكتريولوجي في مستوصف السل درس في المانيا . وتبلغ ميزانية وزارة الصحة نحو اربعة ملايين جنيه

والى جانب المنشآت الحكومية على اختلافها تجد جمعية الهلال الاحمر ولها في تركيا نحو ٥٠٠ فرع وجمعية رعاية الاطفال[1] ولها نحو ٤٠٠ فرع. وقد ذكر لنا الدكتور خليل بك عبد الخالق انهُ علم من وزارة الصحة ان القابلات يقمن بعمل التوليد مجاناً في المنازل على حساب البلديات

***

بلغ عدد معاهد التعليم في تركيا في السنة المدرسية التي انتهت في صيف ١٩٣١ نحو سبعة آلاف معهد — وعند التدقيق ٦٧٩٦ معهداً ، منها ٦٦٢٩ للتعليم الاولي و١٤٨ للتعليم الثانوي و١٩ للتعليم العالي

اما عدد المعلمين والمعلمات في المدارس الاولية فبلغ ١١٤٤٣ معلماً و٤٨٩٢ معلمة وفي المدارس الثانوية ١٩٢٧ معلماً و٤٨٤ معلمة وفي المعاهد العالية ٥١٥ معلماً واما عدد الطلاب والطالبات في المدارس الاولية فبلغ نحو نصف مليون . (النسبة بين البنات والبنين ٢:١) وفي المدارس الثانوية نحو ٣٣ الفاً (النسبة بين البنات والبنين نحو ١ : ٣) وفي التعليم العالي ٣٧٠٥ طلاب و٧٢٤ طالبة

ولما كان يهمني ان اعلم الى اي مدى تقبل الفتيات التركيات على التعليم العالي سألت مدير الجامعة الجديد — في مأدبة العشاء التي اقامها لنا والي استانبول في بيرا بالاس — فقال لي ان عددهن في كلية العلوم كان سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ تسعين طالبة ، وفي كلية الطب ١١ طالبة وفي كلية الحقوق ٧٢ طالبة ، وفي كلية الآداب ١٥٥ طالبة وفي مدرسة الصيدلة ٧ طالبات وفي

(١) بلغ عدد الاطفال الذين تلقوا مساعدة من جمعية رعاية الاطفال في فروعها المختلفة في خلال السنوات العشر الاخيرة ١٩٢٣—١٩٣٣ نحو ٦٠٠ الف طفل . فقد وزع الذين مجاناً على ٧٢٤٧٥ طفلا ووزعت الاحذية على ١٧٤١٤٩ طفلا وبنات الملابس الصوفية لـ ١٤٩١٣٧ طفلا واعدت القبعات لـ ٧٣٨٥ طفلا واشتريت ادوات المدارس لـ ١٤٣٠٣ اطفال الخ

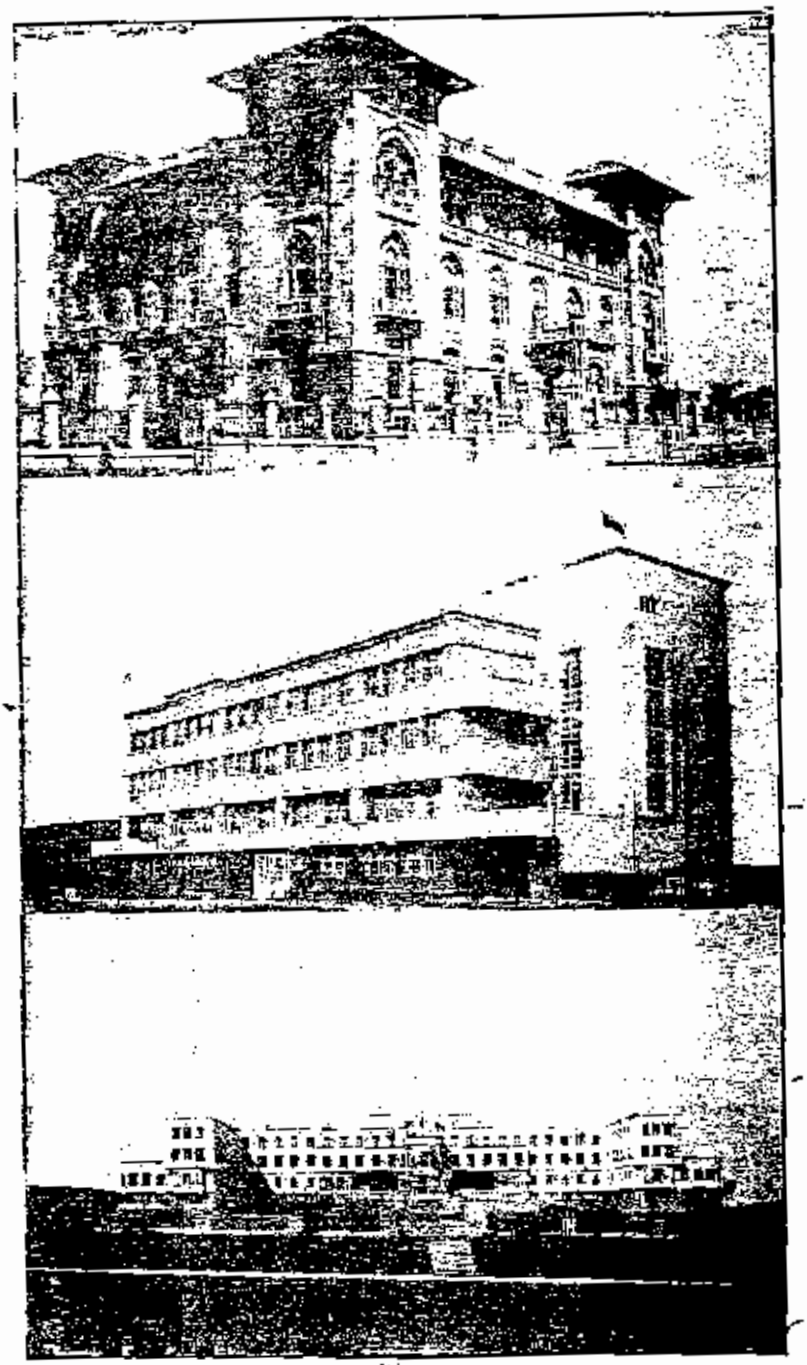

مباني مقره

(فوق) البنك الزراعي اوسط معهد عصمت لتعليم البنات الاقتصاد المنزلي
تحت مقر اركان الحرب

مدرسة طب الاسنان ٢٧ طالبة وفي مدرسة القابلات ١٤٥ طالبة وفي المعهد الخاص باعداد موظفين لمحكومة ٢ طالبات وفي معهد الفنون الجميلة ٧٣ طالبة وفي مدرسة المعلمين العليا ٣٩ طالبة وفي مدرسة المعلمين المتوسطة ٨ طالبات . ثم علمتُ ان عددهنَّ في مدرسة التجارة العليا بانقره ١٠٤ طالبات — وقد اطلعنا شوكت سوريًّا بك مدير المدرسة على الرسائل التي اعدتها الطالبات في موضوعات اقتصادية فرأينا فيها من آثار البحث والتنظيم ما اعجبنا به اشد الاعجاب — وفي مدرسة الحقوق العليا في انقره ٢٢ طالبة وفي معهد الغازي ١٠٠ طالبة

هذا من حيث التعليم العالي ، أما التعليم الصناعي فتجد اقبال الفتيات عليه كبيراً . ففي مدرسة الصناعات ٤٢٣ طالبة ازاء ١٢٨٦ طالباً

***

وانتشار التعليم على جلالة شأنه لا يفيد قليلاً ولا كثيراً اذا كانت روح التعليم لا تتفق وحاجة البلاد . فما هي روح التعليم في تركيا

النزعة الوطنية — التاريخ في نظر الغازي مقدس . هو المحكمة العليا التي تقول في آثار الانسان واعماله الكلمة الفاصلة . وقد كانت المدارس الاجنبية في تركيا في ايام السلاطين تعلم التاريخ على هواها ولكن تركيا الكمالية ، تبعث بمفتشيها الى هذه المدارس الآن ، فاذا وجد المفتش في المدرسة خريطة قديمة وقد رسمت فيها أزمير على انها يونانية ، والولايات الشرقية على انها ارمنية ، قال المفتش ممتعضاً ان هذه المقاطعات لم تكن قط يونانية ولا ارمنية ولن تكون. ومن عودته يصدر الأمر باغلاق المدرسة ويجري ما هو من قبيل هذا في كتب التاريخ. فاذا وجد المفتش خطأ واحداً ضد النزعة القومية التركية يجرح الترك في كرامتهم صدر الأمر باغلاق المدرسة التي تدرس ذلك الكتاب . وقد وضعت عبارة يجب على كل طالب ان يرددها كل صباح ، هي بمثابة العقيدة الوطنية التي تغرس فيه وترجمتها : — « أنا تركي امين مجتهد . يقضي عليَّ واجبي بحماية من كان أضعف مني ، واحترامٌ من هم اكبر مني ، ومحبة بلادي باخلاص . مطمحي ان ارقي نفسي وان اداوم السير على طريق التقدم . انني اهب كياني لكيان تركيا »

ولكي تثبت هذه النزعة الوطنية ، وضع برنامج لتعليم التاريخ الدولي وتدريس المبادىء الاقتصادية والاجتماعية السائدة في مختلف البلدان . وفي تدريس تاريخ الحركة الوطنية تذكر الحقيقة مجردة ، فهناك يقرأ الطالب اسباب انحطاط الدولة العثمانية واسباب نهوض تركيا الجديدة ، وانتصارها وما يطلب من ابنائها للسير بها الى مطمحها الأسمى

النزعة العملية — بدأت حركة التعليم الجديدة كما يبدأ كل شيء جديد في تركيا ، بخطة

وأمر من الغازي . فاتخذ الولاة كلمة (التعليم واجب وطني) شعاراً لهم في حث الشعب على طلب العلم ، وقد عني واضعو برامج التعليم — بناء على رغبة الغازي — بأن يكون التعليم ، مما يربي الملكات ، لا مما يحشو العقل . فيؤخذ الطلاب في جولات خلوية ، ويعطى كل منهم شيئاً يعثرون به ، زهرة او حجراً غريباً او قطعة لحم او ورقة نبات . ويطلب منهم ان يبحثوا عن تاريخه وان يصوروه . ثم تختار أكثر الرسوم اتقاناً وتعلق على جدران المدرسة وتمنح جوائز للمتفوقين . وفي كل المدارس تجد مجموعة من الحجارة المختلفة ، وهيا كل الحيوانات والطيور المحنطة ، والازهار المجففة ، حتى يكون التعليم مقروناً بالمشاهدة . وفي المدارس التي زرناها — دار المعلمين في ازمير ، ودار المعلمين في انقرة — شهدنا معامل الطبيعة والكيمياء مجهزة بأحدث الآلات حتى يكون تعليم هذين العلمين مقروناً بالتجربة والامتحان . وفي مدرسة التجارة العليا عرفنا ان التعليم متجه الى الوجهة العلمية العملية ، فيعطى الطالب موضوعاً عليه ان يحقق اموره بنفسه في البلاد . وليس امامه مرجع يرجع اليه او ينقل منه . فقد اطلعنا على رسالة لأحد الطلاب في نظام ادارة السكك الحديدية وعمالها ، واخرى في موضوع القطن التركي زراعة وصناعة وتجارة . وهذه النزعة تفسر لك كثرة المدارس الفنية والصناعية التابعة لوزارة المعارف او للوزارات الاخرى ، كمدارس الزراعة التابعة لوزارة الزراعة ومدارس الاشغال العامة ومدارس سكك الحديد ومدارس صناعة الحرير ومدارس مفتشي الصحة

يضاف الى ذلك انك تجد في المعلمين رغبة في كشف مواهب التلميذ وتوجيهه في الوجهة التي تفيده . ولعل ذلك شيء من اثر اصدره الغازي فحرم به جلد التلاميذ

النزعة العلمانية — روت كاتبة انكليزية انها كانت مسافرة من قونيه الى أدنه فلقيت مفتشاً من مفتشي المعارف فدار بينهما حديث ، سألته في خلاله : ولكن ما هي عقيدتك فقال : اؤمن بالعلم والغازي ومستقبل بلادي وأثق بنفسي . فقالت دهشة ولكن ... ولكن ... الله... فقال من يعلم شيئاً من الله . هناك العلم . وقوتا الخير والشر . أما عن الباقي فلا نعلم شيئاً ما

ولعل هذا المفتش كان يعرب عن ضمير جيله . الجيل الذي يقلب نظره في احوال العالم فلا يرى الفوز الا للصناعة القوية والاسلحة القوية القائمة على العلم . الجيل الذي شهد كيف استعمل الدين لأغراض سياسية . وما عانته تركيا من جراء ذلك من دول تدعي انها حامية الدين المسيحي . ألم يقل لهم الغازي في خطاب ألقاه : « علموا الحق وبرهنوا عليه بالعلم . علموا طلابكم الموضوعات التي تفيدهم في الحياة . علموهم النظام والترتيب والملاحظة علموهم الفرق بين الخير والشر ، بين الخطأ والصواب . علموهم ان يعرفوا انفسهم وان يثقوا بأنفسهم وان يعتمدوا على أنفسهم »

انهم يؤمنون بالعمل، ومن يؤمن بالعمل، لا يجد متسعاً من الوقت، في رأيهم، للصلاة والصيام فهم يبشرون بمبدإ التقدم العلماني[1] . فاذا قلت لهم ان الدين حامي الفرد والمسيطر على مسائل الجنس والشهوة . قالوا لك الدولة هي حامية الفرد ، والمرأة هي المسيطرة على مسائل الجنس والشهوة . والمرأة تعامل بالاحترام الذي يليق بها . حتى في ايام الحريم كنا نحترم المرأة التي تحترم نفسها . وعندنا ان التعليم الأدبي ، وغرس مبادىء الفضيلة ، خير من مجرد الاعتقاد وعدم تطبيقه . واذا أشرت الى كثرة حوادث الانتحار ، وعللتها بانحلال العقيدة ، قالوا لك ان لجنة من الاطباء العلماء تناولت البحث في هذا الموضوع ووجدت ان بواعث الانتحار سببها اضطراب الاحوال العامة التي تلت الحرب الكبرى في الغالب

وعندي ان هذا الاتجاه ناشىء عن تطرفهم في احترام القوة والصناعة اللتين لابدّ منهما لامة فتية تحاول ان تدرك ما فاتها من اسباب الرقي المادي . وانهُ اذا استتبّ لها ذلك ارتدت الى دخيلة نفوسها وعندئذ ترى ان الايمان بالعلم لا يشبع كل حاجات النفس

يضاف الى ذلك ان الغازي يعلق بالرياضة البدنية شأناً كبيراً ، من الوجهة الخلقية علاوة على الوجهة الصحية فهي تعلم الانصاف والتعاون في العاب الكرة ، وتربي في الكشافة خلق النجدة والنخوة . ولذلك تراه يعززها ما يستطيع الى ذلك سبيلاً

— ٧ —

عرف القارىء من الفصول المتقدمة انهُ ليس في وسع الكاتب ان يخطّ سطراً واحداً عن تركيا الجديدة من دون ان يشير الى الغازي مصطفى كمال ، مجدد معالمها ، ومغتصب استقلالها بحد السيف ، ومنظم حكومتها الجمهورية ، ونافخ روح الحياة في شيبها وشبانها ، في نسائها ورجالها على السواء . انك تجد طابعهُ الشخصي ، في كل مجمع وكل مدرسة وكل منجم وكل مستشفى تؤمه . بل انك تجده في كل مزرعة حديثة ترى فيها فسائل الاشجار لتحريج النجد القاحل في قلب الاناضول . فأنت لا تستطيع ان تتملى من هذه الصورة العجيبة التي تمثل امام عينك ممتدة من استانبول الى انقرة ، الى ما وراء انقرة ، ومن قسطمونو وطرابزون الى يالوى وازمير ومرسين، من دون ان تتوق الى ان تزيد معرفةً بذلك الفنان المبدع الذي وشّاها بألوانها ونفخ فيها من روحه ، نسمة الحياة

(١) الموقف نحو المدارس الاجنبية في تركيا ، صريح لا لبس فيه . فهم يقولون ان تركيا تؤمن بالمبدإ العلماني، كأساس للارتقاء في هذا العصر . وان كل مدارسهم تجري عليه . وانهم كذلك يرحبون بالمدارس الاجنبية في البلاد ، وانما يشترطون عليها ان تحترمه . فاذا قبلت ذلك فيها ، والا فيجب ان تقفل ابوابها. وقد كتب يونس نادي في جمهوريت تقال : « ان اصحاب المدارس الاجنبية حاولوا ان يملكوا احد ملكين اما ان يعلموا الدين او ان يرحلوا . ونحن نطلب اليهم ان يبقوا في البلاد ، وان يخضعوا لقوانين البلاد وتقاليدها ، وان يحترموا في تعليمهم . وانما نوجه هذا الطلب خاصة الى كلية روبرت وكلية البنات الاميركية في استانبول»

ومهما يكن المصير ، الذي خبأته له الاقدار ، فلا ريب عندي في انهُ اصبح من رجال التاريخ العظام . وقد زاده ظهوراً بين قومهِ ان ليس بينهم من يدانيه في قواه العقلية او في مقدرتهِ على تسيير سفينة الدولة في بحر السياسة العجاج . كلُّ ممثل لتركيا في مؤتمر دولي ، يجب ان يمثل امام الغازي قبل سفره. يعيد عليه القضية التي يدافع عنها فيناقشه الغازي فيها مناقشة مطلع طارف ببواطن الامور ، فاحص لدقائقها ومغازيها ، ويعرض لجميع وجوه المسألة كما يراها ، حتى لا يفاجأ المندوب في المؤتمر مفاجأة تأخذ عليهِ باب الكلام ، او توهن من موقفه القومي . كذلك فعل مع عصمت باشا لما ذهب الى لوزان . وكذلك فعل مع توفيق رشدي بك لما ندب الى جنيف . ولا يبعد ان يكون قد جرى على الخطة نفسها مع اسعد بك قبلما سافر الى لاهاي للدفاع عن تركيا في قضية اللوتس المشهورة

***

كان لمساوىء الحكم في عهد السلطان عبد الحميد اثر عظيم في نفسه منذ حداثته . فكان وهو صبي يافع يتلهب غيرة على وطنه . ويظهر انهُ ورث الروح العسكرية عن اسلافه فنبغ في علومها ، وتفوق في الناحية الرياضية منها ، واقسم من حداثته ليبذلنَّ كل غال في سبيل وطنه. وكان ذلك اهم ما يجيش في صدره وهو فتى غض الاهاب فكان ينشر وهو يافع في المدرسة صحيفة يكتبها بخط يده ويشرح فيها ما يراه من مساوىء الحكومة في ذلك العهد

ومع ان المقادير قد اوصلته الى اعلى المراتب بين قومه ، الاَّ انهُ بعيد كل البعد عن المطامح الدنيوية . ولو خيّل اليهِ ان مصلحة الدولة تقتضي بقاء السلطان على عرش آل عثمان لما تأخر عن ذلك . بل انهُ في فترة من فترات الجهاد الوطني ، رجا السلطان رجاءً ان يتقدَّم الصفوف ، ويقودها فتتكل السلطان ، فلم يبق بدٌّ من السير من دونه . فلما عرض الترك على الغازي ان يتقلد منصب السلطان والخليفة معاً ابى ذلك كل الاباء . ولو فعل ذلك لاصبح المنقذُ القومي مغامراً سياسيًّا ، لا تهمه مصلحة البلاد بقدر ما تهمه مصلحتهُ الخاصة

لذلك يفضل ان يعرف بأنهُ احد ابناء الجمهورية التركية — لا أكثر ولا أقلّ — وقد قال لمن حاول ان يقابل بينه وبين نبوليون والاسكندر ، اسمي «مصطفى كمال » فاذا شئت ان تكرمني ادعني مصطفى كمال . ولكنه يسمح لقومهِ بأن يلقبوه بالغازي!

***

بعد عشر سنوات من الحكم ، ترى الغازي وحيداً وعلى وحدتهِ مسحة من كآبة العزلة . فكأنهُ على قنة جبل ، رغم محبة الشعب له وتعلقه بهِ . انك تجد صورتهُ في كل مكان ، في الباخرة التي سافرنا عليها ، وفي النزل الذي اقمنا فيهِ ، وفي المعاهد التي زرناها على اختلافها . بل انك لاتكاد تطلع على صحيفة من الصحف اليومية — واكثرها مصور — الاَّ وتجد صورة للغازي

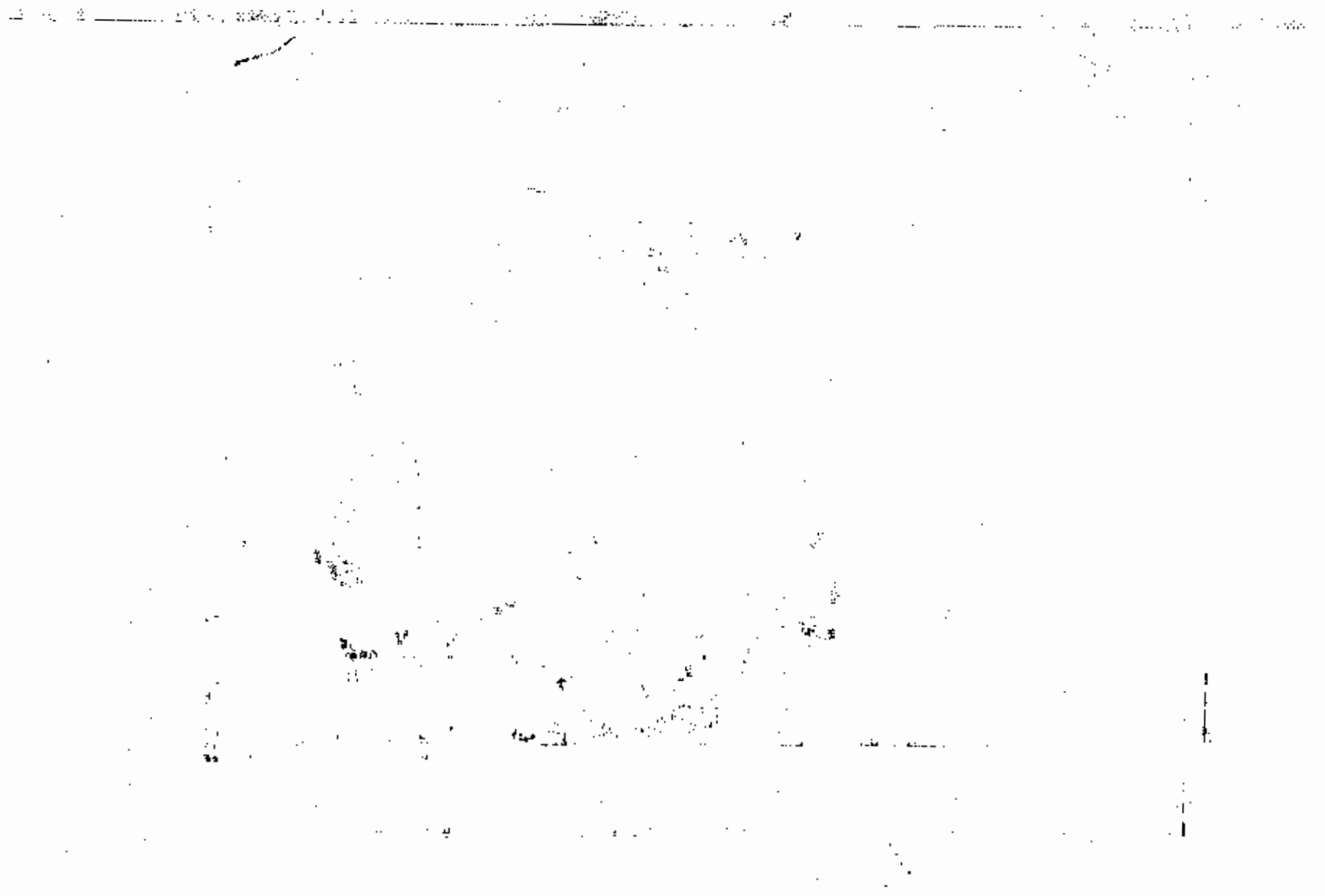

الغازي مصطفى كمال

مقتطف نوفمبر ١٩٣٣ — امام الصفحة ٤٤٩

في موقف من المواقف. المدن تتبارى في اهداء الدور اليه ، ففي ازمير قيل لنا هذا بيت الغازي اهدتهُ اليه المدينة ، وفي بروسة بيت الغازي كذلك وفي يالوى بيت الغازي . بل هي تتبارى كذلك في اقامة التماثيل له، حتى انك لترى في انقرة وحدها ثلاثة تماثيل له على الاقل في الميادين العمومية

ولكن الرجل الحديدي ذا الوجه المجعد والعينين الرماديتين الغائرتين تتفحاز الشرر ، والجبهة العالية يتوجها شعر ذهبي ، ينكش قليلاً قليلاً بعد ما سنّ كل ما يراه لازماً لتركيا من القوانين . وابناء وطنه يشعرون بذلك ويحسون بشيء من الكآبة . انهم يعلمون ان مرض الكليتين التي عليه يده الثقيلة وأقعده غير مرة . وهم يعلمون انهُ لم يدّخر نفسه في طول حياته فبذلها سخيّاً ، في اللهو وفي الجهاد . هو في انقرة بين قومه يحيط به رفاقه في الجهاد، وابناؤه في الزعة والايمان ، ولكن القوم في استانبول، يلقون الى الشائعات آذانهم، فاذا لم يستطيعوا ان يروه رأي العين، تقوّلت السنتهم الاقاويل ، حتى يبرز لهم الغازي من شرفة تطل على البوسفور فينشر عليهم عندئذ جناحي الخطيب الذي تؤيد افعاله كل كلمة ينطق بها ويقول لهم : — لقد غلبني ما تكبدتموه من المشقة في مجيئكم الى هنا . لا تظنوا انهُ لا مندوحة عن التطلع الى وجهي. لافضل في نظري ان تسموا الى فهم افكاري ومشاركتي فيها . ان عيونكم تنبئكم اني صحيح معافىً . اما المحبة التي تربطني بكم فلن تضعف . وان قوتي لقائمة على تلك المحبة ، وعلى محبتكم لي . ان هذه البلاد ، في ظل هذا النظام ، سوف تصبح اجدر الأمم بالاحترام . واني لن اموت قبل ان تتحقق كل اماني » !

***

كان السلطان العثماني خليفة للمسلمين . فكانت الدولة العثمانية بين نزعتين ، النزعة القومية التركية ، والنزعة العثمانية الاسلامية . وكانت النزعة العثمانية هي السائدة في الغالب . فحفلت قصور السلاطين في الاستانة بخليط من ممثلي شعوب الدولة، من اسبان ويونان وارمن وكرد وعرب وتتار وسقالبة. فما كانت حركة تركيا الفتاة والثورة التي غشوا بها الدستور العثماني من السلطان عبد الحميد جعلوا الدولة العثمانية بشعوبها المختلفة، المتنافرة في اعزجتها ومطامحها، ميداناً لحركتهم ، بدلاً من يوجهوا النظر الى الشطر التركي ، وفيه من التجانس بين السكان ، أصلاً ولغةً وطبائع ، ما يمكنهم من تحقيق الاصلاح الذي ينشدون. وعلى ذلك ترى ان النزعة القومية التي دعا اليها رجال تركيا الفتاة ، وراموا تطبيقها على الدولة العثمانية من البلقان الى ما وراء النهرين ، ومن القوقاس الى المحيط الهندي ، كانت باعثاً على نشوء النزعات القومية بين الاكراد والعرب والارمن وغيرهم من الشعوب التي تتألف من مجموعها الدولة العثمانية

بين الضباط الاتراك الذين حكموا فيما بينهم وبين قومهم ، ان النظام القديم بالرغم لا يرجى له اصلاح كان ضابط ، فأنور العينين ، نشأ البصر عني به رؤساؤه فعيّنوه في اماكن نائية عن عاصمة البلاد فهو آنئذ ضابط في حيفا ، واخرى مكافح في طرابلس الغرب ، وثالثة منطقق حربيّ بمفوضية تركيا في صوفيا . وذلك لانهُ كان حرّ الطبع ، لا يصبر على الخسف ، فكان ينتقد ما يراهُ جديراً بالانتقاد — وما اكثره في تلك الايام — بكلام لا يحتمل التأويل . حارب الانكليز في الدردنيل وغاليبولي فعرفوا فيه ضابطاً ممتازاً شجاعاً لا يني ، صبوراً لا يملّ ، يقظاً لا يؤخذ على غرة ، فباء من الدردنيل بتقدير اعدائه ، ورئيسه الجنرال فون سندرس باشا

فما احتلّ الحلفاء استانبول [1] بقيادة قائد بريطاني ، واصبح السلطان بوقاً في يد المحتلين بذل ما يستطيعهُ لحمل الاتراك على المقاومة ، ولما قنط مصطفى كمال من التواء المشتغلين في السياسة ومواربتهم اخذ يعد المعدات للذهاب الى الاناضول فدعي الى مجلس الوزراء وكان منعقداً لينظر في أمر احتلال اليونان لازمير ، فسئل مرأيه فقال « المقاومة » فقالوا « وكيف نقاوم هنا » فقال « اذا افرغتم جهدكم هنا الحقوا بي »

وفي ١٩ مايو سنة ١٩١٩ نزل مصطفى كمال الى البرّ في سمسون يرافقهُ رأفت بك

***

ليس هذا مكان التبسط في تنظيم الحركة الوطنية ، وما عاناه فيها مصطفى كمال من ضروب المقاومة ، من الحلفاء ومن ولاة الاناضول ومن الحكومة في استانبول حتى ومن بعض اصدقائه الاقربين . وكيف كان يتحتّم عليه ان ينظر الى تنظيم الجيش ليكون المرجع الأخير في السيطرة على البلاد ، واندلاع الفروع ، وارسال التعليمات الى رؤسائها . كان الرجل لا يكلُّ من العمل . وكان عقلهُ يتسع لكل كبيرة وصغيرة . قيل لي . وهل تظن ان كل هذه الاعمال التي تمت على يده وباسمه هي من ابتكاره ، فقلت لا يستطيع احد ان يحكم على مصطفى كمال الاّ اذا قرأ تلك الخطبة الضافية (نحو ٨٠٠ صفحة) التي القاها بنفسه من بضع سنوات في مجلس الامة . باسطاً فيها تاريخ الحركة الوطنية . فقد روى بنفسه ، وأيّد روايتهُ بالوثائق الرسمية ، انهُ كان يجلس الى آلة التلغراف يخاطب الزعماء ورجال الحكومة ، ويبسط لهم بسطاً مفصلاً ، في كلام مدوّن محفوظ ، آراءهُ في الاتجاه الذي يجب ان تتجه اليهِ الحركة الوطنية . وفي هذه الرسائل التي كان يكتبها ، والبديهة في الظاهر تمليها — وانما البديهة في الواقع تستمدّها من عقل قلّبها على مختلف الوجوه

---

(١) عقدت هدنة مودروس في ٣٠ اكتوبر ١٩١٨ وهي تخول الحلفاء حق احتلال اي منطقة من مناطق البلاد الثمانية ولتنفيذ هذه القاعدة فتحت ابواب الاستانة في وجوههم ولكن احتلال الحلفاء العسكري للاستانة لم يقع الا في مارس ١٩٢٠

وخزن مبادئها واصولها — تقع على زور كل الانقلابات التي تمت في تركيا على يديه وبمعاونة رجاله الاصفياء

هناك في الاناضول انشأ حكومة وطنية وتحدى العالم !

تحدى السلطان ورجال حكومته فلم يستطع هؤلاء ان يناوئوه بسوء . ولكن اليونانيين ، الذين ورثوا من الحلفاء قطعة من الاناضول ، واحتلوا ازمير باسم الحلفاء ، سيّروا جيشهم على انقرة ، العاصمة الجديدة ، وهي قرية قديمة حقيرة كانت منازلها المبنية باللبن المجفف ، مقرّاً لوزراء تركيا الجديدة ولاركان حربها . وسار الجيش اليوناني يكتسح امامهُ كلّ شيء ، حتى بلغ نهر سقاريا . هناك اعدّ لهُ مصطفى كمال العدّة ، بعدما عقد معفرنسا اتفاقاً اخلى لهُ الوفاً من الجنود الاتراك المرابطين على حدود سوريا ، وعمد الى الحيلة ، فاعلن ان هجومهُ سوف يبدأ في يوم معيّن ، ولكنهُ لم يبدأ . وفي ليلة ليلاء ، اعدَّ في تفان كايا مرقصاً فاخراً وامر الناس بالقصف واللهو ، والتفّ هو الى صفوف الجيش ، واصدر امره التاريخي : « امامكم البحر المتوسط » واطبق على الجيش اليوناني ، وعيون قوّاده متجهة الى مرقص انقره ، فتراجع اولاً ثم اصبح التراجع هزيمة لم تنتهِ حتى دخل الغازي مدينة ازمير . وسار حتى اصبح على بضعة اميال من استانبول ، فلجأ السلطان الى بارجة بريطانية

وفي ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٢٣ اعلنت الجمهورية التركية ، وانتخب مصطفى كمال الغازي ، رئيس المجلس الوطني الكبير ، رئيساً لها

***

كان الظفر في حرب الاستقلال فاتحة لا نهاية . عند ذلك انقلب الزعيم الحربيُّ والقائد الوطنيُّ منظماً سياسيًّا واداريًّا واجتماعيًّا ، في الطبقة الاولى بين رجال العصر . اليس هو القائل ، « ان القائد الحازم يجب ان يكون مشترعاً حازماً . ولا يصدق الحكم على القائد الحربي الاّ وقد اثبت ان في وسعه تحويل رجاله من جيش قتال الى جيش سلام ! »

كان غرضه ان ينشىء من تركيا دولة تتمتع باستقلالها السياسي والاقتصادي — بحريتها التي ابتاعتها بأغلى الاثمان . الحرية — ! وما كان مصطفى كمال من الذين يهرفون ، بمعاني تلك الكلمة الرنانة ، فينقادون الى الوهم والضلال . كان يعلم انك لا تستطيع ان تترك الحرية ، كرةً تتقاذفها تيارات السياسة الحزبية ، يخلقها رجالٌ ، تفتنهم العبارات المسمّمة ، ثم تبتلعهم تلك التيارات في دردورها . وكان نظره صائباً اذ صرح في خطبة له في بدء الحركة الوطنية « ان المشروعات الكبيرة تقتضي زعيماً »

فبعد الظفر في الحرب بدت له عظمة العمل الذي امامه ، وما ينطوي عليهِ من المهاوي والمخاطر . ولكنه لم يعلّل نفسه بفترة من السلام ، بعد النصر ، يستجمُّ فيها القوى ، ويأخذ

الاهبة ، لمعالجة المشكلات التي تجب معالجتها . ألا يقول العلم الحديث ، بأن الحياة نزاع لا ينتهي ؟ الم يثبت داروين وعلماء الحياة بأن القوي في النزاع يفوز . وان الضعيف يهوي الى الحضيض ؟ لقد اثبت مصطفى كمال ، في ساحات التنظيم القومي ، وفي ميادين القتال ، انهُ ليس من الاوكاس . ابدع السلام يغلبه في ساعة الظفر الحربي ؟

كانت المشكلة الكبرى التي تواجهه ، التوفيق بين الحرية والنظام . وهو الاساس الذي تقوم عليهِ كل حكومة

لو شاء الغازي حينئذٍ ، لسلك الطريق السهل ، واعلن دكتاتورية حربية ، ولما التي حينئذٍ مقاومة ما ؟ أليس هو الغازي ، طارد الاجانب من البلاد ؟ الا تتفق الدكتاتورية مع تقاليد الاتراك الحربية ؟ ولكن الدكتاتورية الحربية ، كانت مناقضة لفلسفته السياسية ، القائمة على ركنين من «ارادة الامة» و«امتناع الجيش عن التدخل في شؤون الحكم» . ففضّل ان ينشىء حزباً سياسيًّا ، وبواسطته يبسط سيطرتهُ على مجلس الامة

وكان صريحاً في اعلان رأيهِ . قال ان الظفر الحربي لا يكفي لضمان المستقبل . والمستقبل لا يضمن الا بتنظيم الامة تنظيماً اداريًّا وسياسيًّا . واذن فلا بدَّ من برنامج اصلاح قائم على الاسس العلمية . وحزب الشعب الذي أسسهُ ، ورئسهُ يجمع بين الحزب الفاشستي من حيث تمثيله لرغبة الامة ، والحزب الشيوعي في روسيا ، من حيث سيطرته على شؤون الحكومة . وسلطانهُ قائم على تأييد هذا الحزب لهُ . وهو لو شاء لأعلن نفسهُ دكتاتوراً مدى الحياة ، ولكنهُ يفضل في سبيل تثقيف الشعب ، ان يجدّد انتخابهُ رئيساً للجمهورية ، في كل برلمان جديد ، مرة كل اربع سنوات

وكان خصومهُ في البدء اشداء ، وحاولوا ان يهاجموه من ناحية معاهدة الصلح ، لأن المناقشة في مؤتمر لوزان طالت ، ولم تفضِ الى نتيجة ، فقالوا ان عصمت مفاوض ضعيف ، مفرّط في حقوق البلاد ، وانهُ لا بدَّ ان يعود بمعاهدة جديدة كمعاهدة سيفر المقبورة . فلما يئس كردون من حمل عصمت على الاتفاق ، عاد غاضباً الى لندن ، فكان ذلك ايذاناً باشتعال روح البغض للاجانب في مجلس الأمة في انقرة ، فاغتنم الغازي الفرصة ووقف في المجلس ، وعدت الى جنبهِ وقال : « ان تركيا تطلب السلام وانها مستعدّة لتحكيم سلات المودة[1] مع كل الامم . ولكن تركيا مستعدّة للحرب اذا اقتضت الحال ذلك ، لان الحياة من دون الاستقلال لا تطاق . وانها لا بدَّ ان تفوز ما زالت معتمدة على قوتها الحقيقية : المستمدة من ميثاقها القومي ودستورها الجديد اللذين الغيا سيادة الفرد واعلنا سيادة الامة

(١) يروي المستر شرل وزير اميركا السابق في انقرة انه عند وصوله الى مقر سفارته ، بعث لرجال الحكومة رغبته في زيارة ميادين الحرب مع انيونان فتنوه عن عزمه قائلين « اننا نريد ان نجري على خطة صداقة مع انيونان ولا نريد ان تباهي العالم المتمدن بالنصر الذي احرزناه عليهم »

وعاد عصمت الى لوزان ، فتاز بالمعاهدة التي ترضي تركيا

ولولا الظفر الحربي ، لما استطاع مصطفى كمال ان يمضي في الانقلاب التركي الى نهايته . الغى السلطنة والخلافة في تركيا ، لانهُ اراد ان يرفع من شأن النزعة الوطنية الدستورية ، ونقل القانون السويسري المدني بحذافيره ، لانه اقرب الى احوال العصر ، وحرر المرأة لانها يجب ان تشترك مع الرجل في بناء الدولة وتهذيب الاجيال المقبلة ، وغير لباس الرجل ليكون التغيير ماحقاً للفروق بين الاتراك والاوربيين ، واستبدل الحروف العربية بحروف لاتينية وجعل الكتابة بها من اليسار الى اليمين ، لان الكتابة العربية لا تصلح في رأيهِ لنشر مُثُل الحضارة العلمية . وقد كان في كل ذلك مقداماً لا يخشى . ولكن اقدامه كان اقدام رجل مهد الطريق ، واختار الفرصة الصالحة . ولما سألت اوربيًّا كبيراً في استانبول عن اهم مايتصف بهِ مصطفى كمال قال « الحكمة العملية » ، لانهُ من السهل ان تعدَّ على الورق برنامجاً طويلاً عريضاً للاصلاح ، ولكن السر كل السرّ في اخراجه الى حيّز العمل في الوقت الصالح والفرصة المناسبة . فمصطفى كمال رجل لا يرتجل الاصلاح ارتجالاً

وكذلك اصبحت تركيا ، ذات يوم ، وهي المقهورة في الحرب الكبرى ، فاذا هي أحسن حالاً من كل البلدان المقهورة ، بل من بعض البلدان التي كانت في جانب الحلفاء المنتصرين

***

يجد بعضهم وجهاً في الشبه بين نهضة المانيا الحديثة بزعامة هتلر ، ونهضة تركيا بزعامة مصطفى كمال . ولكن الفرق بين النهضتين يتعدى الظواهر الى الاصول . بدأت النهضة الهتلرية في الداخل فأحيت الروح الالمانية وهي متجهة الى الخارج ، الى تحقيق الحلم بالمانيا الكبرى التي تضمُّ جميع الالمان في اوربا — في النمسا وتشكوسلوفاكيا وغيرها — . واما النهضة الكمالية فبدأت في الخارج ، اذ طردت الاجانب ، وعيّنت حدود البلاد ، ثم اتجهت الى الداخل تحاول ايقاظ الشعب وبعث معنى جديد من معاني الرقي في نفسهِ . فالاولى تتجهُ من فتح روحي الى فتح مادي . والثانية تتجهُ الى الفتح الروحي ، بعد الظفر في الفتح المادي

قد كان في استطاعة مصطفى كمال ، في ساعة الظفر ، ان يرنو بنظره ، الى ما وراء تركيا ، فيمد حدودها ، ويبسط نفوذها ، ولكنهُ اختار هذه الفرصة ليغمد السيف ، ويوقف الحرب ويخلع البدلة العسكرية . انها والله لعظيمة من هذا الرجل الذي ولد عسكريًّا ، وذاق حلاوة الظفر العسكري . كان اسهل الامور عليهِ ، ان يمضي ، وهو الملهم بخميرة الظفر ، فاتحاً غازياً ولكنهُ فضّل ان يستدبر حياة الفاتحين ، ليستقبل حياة المصلحين المحفوفة بالمصاعب . وليس هذا بكثير على من يستطيع ان يلقي عليك عفواً فقرات كاملة من كتاب « ولز » في « موجز التاريخ »

فؤاد صروف